قصص الأطفال المقاصد والمضامين

يجب أن تكون خلاقة وقابلة للتطبيق لأن ما يكتب للأطفال غالبا ما يكون الغرض منه التربية التي تسعى إلى تكييف الفرد مع البيئة الاجتماعية المحيطة به، ولذلك تعددت موضوعاتها ومن بينها:

القصص الديني

تكاد القصص ذات المضامين الدينية أن تطغى على باقي أنواع القصص الأخرى، ويرجع السبب في ذلك إلى وجود مرجعية قصصية قرآنية استقى منها الكثير من الكتاب مضامين قصصهم وشخصياتها وأهدافها الدينية والتربوية؛ وهي مضامين تلتقي والفطرة السليمة التي فطر عليها الإنسان، لذلك ينمو الطفل وبه ميل إلى ما فطر عليه، ولديه الاستعداد لتلقي ما وجد عليه أسرته ومجتمعه، و بوجود طفل ينتمي إلى مجتمع مسلم؛ فإن ذلك شكل ركيزة ساعدته على تلقي تلك القصص والمضامين.

وقد ارتبطت موضوعاتها بالعقيدة والتوحيد، والتقرب من الخالق عز وجل؛ والامتثال لأوامره، ونواهيه، وحاولت تمثل المعاملات الحسنة والأخلاق الحميدة، كما ارتبطت أيضا بسير الأنبياء والرسل وقصصهم مع أقوامهم, ومعاناتهم في تبليغ رسائلهم، ونتيجة للارتباطات العائلية والعقائدية، الأطفال ميالون إلى هذا النوع من القصص الذي يرتبط بفطرتهم.

وقد حاولت القصص الدينية أن تتطابق في مضامينها مع ما جاء في القرآن من قصص الأنبياء، وما عرف من سيرة الرسول (ص) والصحابة، وسير السلف الصالح، وتتجلى هذه

القصص فيما كتبه حسن رمضان فحلة في "سلسلة قصص الأنبياء للأطفال"[1]، وتضم ثلاثين قصة منها؛ إدريس، نوح، هود، صالح، يعقوب، يوسف، موسى، سليمان، عيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعا.

والطفل وهو يسعى إلى رسم النماذج وتصور الأشياء، وتحديد ذاته فإنه يجد في قصص الأنبياء وسيرهم والسلف ومواقفهم؛ النموذج الذي به تتشكل المعرفة الذهنية لديه، وعليه يبني شخصيته وتتحدد مواقفه وتصرفاته من خلال الاحتذاء، والملاحظ على هذه القصص أنها موجهة لأطفال المرحلة الأخيرة.

وإذا كانت جاذبيتها تدفع الطفل لقراءتها؛ فإن ذلك لا يعني أنه سيقبلها دون اعتراض منه إذا خرجت عن مسارها التصويري, فالطفل يدرك ذلك ويتوقف عنده، كما هي الحال في قصة الحمامة الحمقاء،"وخرج سليمان عليه السلام يستسقي، فرأى نملة مستلقية على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء تقول اللهم أنا خلق من خلقك ليس بنا غنى من سقياك"[2], وهذه الصورة التي توجد عليها النملة شوهت ما جاء في القصة، والطفل لا يفوته مثل هذا التشويه للصورة؛ الذي أفسد الطريقة المعروفة عند الدعاء؛ وقد يلجأ الطفل إلى ذلك خاصة في مرحلة التقليد.

ويغلب عليها جميعا التقسيم إلى عناصر، والتركيز والطول، ومناقشة قضايا تفوق كثيرا مستوى الطفل كالخلق والبعث, مع اشتمالها على كثير من آيات القرآن الكريم، وبذلك مالت إلى التقرير مع ارتباطها بالحقائق التي جاءت فيه, لتصبح في بعض الأحيان عبارة عن آيات من القرآن كقصة "المتكلمة بالقرآن"[3], ومثل ذلك يبعدها أن تكون قصصا للأطفال.

1- ينظر, حسن رمضان فحلة: سلسلة قصص الأنبياء للأطفال, دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، د ط, 1992.

2- زكريا مكسار: سليمان والنملة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية, الرغاية، الجزائر، د ط, 1990. ص:16.

3- ينظر، محمد المبارك حجازي: المتكلمة بالقرآن، ترانسباب للنشر والتوزيع, الجزائر, د ط, د ت.

القصص التاريخية:

اشتملت قصص الأطفال وخاصة في الجزائر على موضوعات لها صلة بأحداث التاريخ وشخصيات أبطاله، والمحطات الكبرى فيه، في سعي منها لربط الطفل بماضيه وأصالته وتاريخه، وهذه القصص ليست تأريخا بل قصص يوجد فيها من التاريخ كما يوجد فيها من الخيال والتصور، وبعض الشخصيات غير التاريخية دون التزوير في حقائقه.

وقد تناولت قصة الأطفال في الجزائر التاريخ الإسلامي وعظماءه، وتاريخ الدولة الإسلامية, وخلفاءها الراشدين، والملوك والفاتحين، ومالت كثيرا إلى التاريخ فأرخت للأحداث وأبطالها مبتعدة بذلك عما يسمى فنا قصصيا.

كما توجهت إلى التاريخ الجزائري القديم وهي قصص قليلة "كسلسلة أبطال نوميديا" لعبد الحق سعودي؛ التي نشرتها مكتبة رحاب ودارت موضوعاتها حول"أغاتو" قائد النوميديين، و"ما سينيسا" و"يوغورطا" والأمازيغ في التاريخ[4].

أما الموضوعات المتعلقة بالفتح الإسلامي للجزائر، وتاريخ الجزائر إلى ما قبل الثورة يكاد لا يوجد له ذكر في قصص الأطفال، إلا في القليل النادر[5] كقصة؛ "رايس حميدو" "لعباس كبير بن يوسف", أو قصة "الأمير عبد القادر مفاوض محنك"، أو "الأمير عبد القادر رائد المقاومة" "لمصطفى رمضان" وهي قصص تكاد تتقيد بالحقائق التاريخية, ومن ثمة فإنه يمكن إدراجها أيضا ضمن السرد التعليمي والتحصيل التاريخي.

أما موضوع الثورة التحريرية "فإننا لا نكاد نعثر فيه إلا على قصص قليلة تناولت أحداثها وسجلت وقائعها, وأبرز من عالج أحداث الثورة التحريرية الجزائرية... "محمد الصالح الصديق"

4- ينظر, العيد جلولي: النص الأدبي للأطفال في الجزائر. ص: 71.

5- ينظر, المرجع نفسه. ص: ص ن.

في مجموعته القصصية "عميروش وقصص ثورية""[6], وتميل هذه القصص إلى التفصيل التاريخي, وتغوص في تقديم العبر والحقائق التاريخية؛ مما يقربها إلى القصص التعليمي. وإذا كان الهدف منها ربط الحاضر من خلال تخيل وتصور الماضي, "فإن الطفل يجد صعوبة بالغة في إدراك مفهوم حركة التاريخ لاعتماد هذه الحركة على البعدين المكاني والزماني"[7], لأن مفهوم الزمن يكون عنده غير واضح، ويطرح تساؤلات كثيرة، ويزداد وضوحه بنمو الطفل حسيا وعقليا.

القصص الشعبي

إن الحكاية الشعبية؛ حكاية من نسج الذاكرة الجماعية؛ حول بطل, أو موقف أو حدث شعبي، فردي أو جماعي، وتعد الثقافة الشعبية إحدى الروافد الهامة في قصص الأطفال لأنها تعتمد على الموروث الثقافي لمجتمع الطفل, ومحضن نمائه وانتمائه، وما قد سمعه الطفل من هذه القصص قبل أن يعرف الخط والقراءة، ولذلك يجدها الطفل قريبة منه في عاميتها.

ورغم ما يوجد فيها من اختلافات من منطقة إلى أخرى, أو من جماعة إلى أخرى، فإن هذا يخلق تفككا لغويا في نفسية الطفل، وفي المواطنة والانتماء، ويجعله محتارا بأي اللهجات يتكلم؟ وأي اللغات يكتسب؟ وأي اللغات التي يتعلم بها العلوم؟ أمام هذا التعدد اللهجي في الجزائر؛ فتظهر هذه النصوص "في عالم لغوي؛ أي ما أطلقت عليه في مناسبة أخرى دنيا اللغة, وأعني عالم اللغات الذي نعيش فيه"[8], وعليه يصبح النص بعيدا عن مدركات الطفل والواقع الذي يوجد فيه, ليظل الطفل ومن بعده الفرد في جانب من تكوينه بلا لغة ولا هوية.

6- المرجع نفسه. ص: 72.

7- محمود حسن إسماعيل: المرجع في أدب الأطفال. ص:141.

8 – رولان بارط: درس السيميولوجيا, تر :عبد السلام بنعبد العالي، دار توبوقال, المغرب, ط 3، 1993. ص: 34.

ومن بين هذه القصص ما جاء في "سلسلة حكايات جزائرية"[9]؛ كالأميرة السجينة وبقرة اليتامى، وعروس الجبال، لونجا، الفرسان السبعة، "لرابح خدوسي"، والكثير منها عبارة عن تدوين للقصص الشفاهيي، وهذه الحكايات يتصل بها الطفل, وينشأ فيها لأنها حكاية ما عاشه الآباء, وعاشته الأمهات, أو عاشها الفرد والجماعات، ولكن طغيان الخيال عليها أخرجها من محضن الواقعية إلى محضن الخرافة، وما يحدث من خوارق على يد أبطالها؛ لتصبح " نوعا من الحكايات البدائية المتعلقة بفترة زمنية عاشها الإنسان حالما أكثر منه عارفا, أو مفكرا, وكان يعتقد دون أن يحلل أو يفسر"[10].

في حين وجب أن تقوم القصص الشعبية الموجهة للأطفال على الوقائع . على الأقل .

الممكنة الحدوث لترسيخ القيم الإنسانية والاجتماعية، وتمتين روابط الصلة بين الماضي والحاضر بطريقة تستهوي الأطفال لما فيها من عجيب مدهش، ولما يجده من حرية في الفهم والقبول والرفض, والواقع والخيال, ودون السقوط فيما وقعت فيه قصة "اللص والعروس" حين جعل "موسى الأحمدي نويوات" لصه شخصا ظريفا، لكن الحقائق من الناحية التربوية والنفسية والمفاهيمية لا تجيز ذلك للأطفال؛ وفعل اللصوص مثلا؛ فهو فعل مشين، وبالنسبة للطفل يظل مفهوم اللص يشكل جانبا سلبيا, ولو حاول الكاتب عكس ذلك، فإن الطفل لا يقبل ذلك؛ لأن منطق اللص وما يرمز إليه في عرف المجتمع, والطفل ومنطقه ليس مقبولا بأي حال من الأحوال، ولكن يبدو أنها سلطة الكبير على الصغير, وعدم التخصص في الكتابة للأطفال، التي يفترض فيها أن تهدف إلى التربية وتعديل السلوك الاجتماعي.

9- ينظر, رابح خدوسي: سلسلة حكايات الجزائر، دار الحضارة، الجزائر، د ط , د ت.

10- علي الحديدي: في أدب الأطفال. ص:147.